مقدمة

الموسيقى والطرب من الفنون الحسية التى يستهويها الإنسان منذ نعومة أظفاره حيث تتصل اتصالا عميقا بوجدانه • فالإنسان خلق طروبا ، فهو يهش ويبش ويبكى ويصرخ منذ ولادته نتيجة لإحساسه بالفرح أو الغضب ذلك الإحساس هو الطرب الذى يلازم الإنسان طوال حياته ، ويُقبل عليه عن حسٍّ ووعى واستطابة واستجادة ومتعة فتجذبه الموسيقى بأنغامها ، وتسترعى أسماعه برنات أوتارها وجميل ألحانها • ويعد الغناء منذ سالف الأزمان من أقدم وسائل التعبير التى مارسها الإنسان ، كما يعتبر أمرا مستطابا يتعشقه البادى والحاضر ، ويطرب له الحكام والرعية ، كما أن صناعته تستهوى الإنسان المتحضر حيث أنها تعبر عن حياته وتنفس عن رغباته بأسلوب إنسانى ، وتساهم بشكل كبير في ترقية ذوقه ، وإلى جانب ذلك فهى ذات أثر كبير في بناء نفسية الشعوب ، وفي بناء ثقافة المجتمع ، والنهوض به إذا أحسن استخدامها ، والنزول به إلى القاع إذا أسيء فهمها • لقد كان فن الغناء العربى في مصر مرآة للتطورات المتلاحقة منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين ووثائق للتأريخ السياسى والاجتماعى لمصر خلال هذه الفترة ، خاصة وأن الأغنية يمتزج بها العديد من الفنون الرئيسية وتتفاعل ، كما أنها الفن الأكثر قابلية للتداول بشكل واسع ، ووسيلة التعبير الأكثر وضوحا في بلورة الحالة الثقافية للشعوب ، وإطلاق الطاقات الكامنة في وجدانها •

وقد تزامنت حالة المخاض السياسى التى عاشتها مصر منذ مطلع العصر الحديث مع المخاض الفنى والثقافى ، فسياسيا تأخرت تحولات التحديث خلال الحكم العثمانى الذى جثم على صدر البلاد منذ عام ١٥١٧م وأحدث تراجعا مفجعا في جل مظاهر الحياة الفنية والثقافية ، حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وحملت معها الحضارة الغربية بما فيها من برامج اجتماعية واقتصادية وسياسية مما خلف آثارا واضحة في ميدان العلوم والفنون والسياسة والإدارة وغيرها ، وبدأت الطبقة الوسطى المتمثلة في العلماء والتجار في الظهور مما ساعد على حدوث تغيرات اجتماعية هامة داخل البلاد ، وجعل الناس

ينظرون إلى الفرنسيين وكأنهم جاءوا من كوكب آخر[١] . ومنذ ذلك الوقت بدأت مصر تخوض غمار مرحلة من المخاض الثقافى الذى ما زال يشكل إحدى معضلات صدمة الاتصال بالغرب ، وما صحبها من تحديات تعد من العلامات المميزة في تاريخ الشعب المصرى .

وبعد خروج الحملة ووصول محمد على إلى الحكم بدأت مصر مشروعها السياسى الذى حاول محمد على من خلاله أن ينقل حضارة أوربا إلى مصر وأن يحوّل مصر من مجتمع دينى إلى مجتمع مدنى ، فجعل من الجيش الأداة التى تمكنه من ذلك ، واتجه إلى التعليم الحديث معتمدا في ذلك على الخبرات الأوربية خاصة الفرنسية ، وحرص على استجلاب الفنون والعلوم من خلال البعثات التى أرسلها ، كما حرص على بناء جهاز حكومى قادر على مسايرة حركة التطور .

وفي عهد خلفاء محمد على خاصة في عصر إسماعيل ثم استكمال بناء الاستقلال المصرى عن الدولة العثمانية الذى نشأت في أحضانه الفكرة الوطنية خاصة وأن التعليم الحكومى في عصر إسماعيل اتخذ طابعا قوميا ، وأدى إلى اتساع قاعدة طبقة الأفندية وزيادة تأثيرها في الحياة العامة على نحو غير مسبوق خاصة بعد تقدم الصحافة وتطور الطباعة وتشييد المؤسسات الفنية والثقافية التى انتشرت في ذلك العصر سواء بإنشاء الأوبرا أو المسارح أو بإيجاد الجمعيات العلمية والصالونات الأدبية وغيرها[٢] .

وإذا كانت ملامح هذا التغيير قد برزت في عصر إسماعيل فإنها تعمقت في عهد الاحتلال الذى رغم دوره المؤثر في سيطرة النفوذ الأجنبى على كل مقدرات البلاد ، وإصابته لمشروع النهضة القومية بالإحباط ؛ فإن دوره في تغيير نمط الزعامات المصرية كان واضحا حيث تنحى العسكريون والمعممون عن مواقعهم لطبقة الأفندية والمطربشين الذين حملوا لواء الأفكار السياسية الحديثة أمثال لطفى السيد الذى أطلق شعار مصر

---

(١) Toynbee Arnold : Abdel Rahman, Al jabarti and his Times دراسة قدمها المؤرخ أرنولد توينبى ضمن ندرة عبد الرحمن الجبرتى التى عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل ١٩٧٤ .

(٢) يونان لبيب : مصر المدنية ، فصول في النشأة والتطور ، القاهرة طيبة للدراسات والنشر ، ١٩٩٢ ص ١٣١ – ١٣٢ .

للمصريين[١] ، ومصطفى كامل الذى جعل صيحة الاستقلال تنطلق من حناجر الشباب ، ومحمد فريد الذى حاول تحويل الشعارات الوجدانية إلى واقع عملى يعتمد فيه على جماهير الشعب في القرى والمدن ، وغيره من القادة الذين نجحوا في كسب المساحة الأكبر من الزعامة السياسية وإن لم يشغلوها كلها حتى شبت ثورة ١٩١٩ التى وحدت كل طوائف الأمة المصرية تحت شعار "مصر للمصريين" • وشارك فيها كل قطاعات الشعب المصرى وتولى قيادتها المطربشين الذين ظهر منهم الزعامات التى قادت الأمة المصرية إلى النضال ضد الاحتلال وما ترتب على ذلك من حصول مصر على استقلالها طبقا لتصريح ٢٨ فبراير ودخولها الحياة البرلمانية بعد صدور دستور ١٩٢٣م ، ثم حدوث تغييرات اقتصادية واجتماعية وفكرية عديدة ، ففى المجال الاقتصادى برزت محاولات "طلعت حرب" في أن يجعل من مصر كيانا اقتصاديا ، وفي الميدان الاجتماعى برز تأثير دعوة "قاسم أمين" لتحرير المرأة ، ووجدت صداها عند مجموعة من سيدات مصر وفي مقدمتهن "هدى شعراوى" •

وعلى المستوى الفكرى والثقافى برز من الشعراء "أحمد شوقى" و"حافظ إبراهيم[٢] ،" و"خليل مطران الذين تحدثوا في قصائدهم عن أمجاد الفراعنة وأكدوا فكرة البعث القومى • ومن المفكرين والكتاب برز "لطفى السيد" ، و"عباس العقاد" و"محمد حسين هيكل" و"طه حسين" و"توفيق الحكيم" وغيرهم من المثقفين الذين شقوا للعقلية المصرية طريقها نحو التنوير ، وحاولوا تأكيد الشخصية المصرية في كتاباتهم •

وقد انعكست كل هذه التطورات على الناحية الفنية وعلى العناصر المركبة للعمليات الإبداعية ، التى ارتبطت بالمجتمع المصرى خاصة في الغناء والمسرح • فانطلاقا من شعار "مصر للمصريين" ظهرت موسيقى "سيد درويش" التى تهدف للتخلص من أثر التواشيح والبشارف التركية[٣] والتحاميل[٤] ومخلفاتها واللجوء إلى الفولكلور المصرى

---

(١) حدد لطفى السيد مفهوم هذا الشعار بأنه المصرية الخالصة التى لا تدين بالتبعية للدولة العثمانية أو تخضع نفسها لسيطرة الاستعمار •

(٢) كتب حافظ إبراهيم كتابًا عنوانه ليالى سطيح كان بمثابة بانوراما متسعة الأبعاد لكل مناخات مصر الاجتماعية والسياسية ، ركز فيها على الإدانة المباشرة لعهد الاحتلال في الفترة ما بين عام ١٨٨٢م ومأساة دنشواى ١٩٠٦م •

(٣) موسيقى تركية بحته ، جعل منها الأتراك منطلقا لتطوير الموسيقى الإسلامية ، ولكنها سرعان ما اصطدمت بالموسيقى الفارسية ووقفت عند حد لا تتجاوزه •

(٤) تطلق على لحن يوضع لمجموعة من الآلات تعرف بالتخت •

كأرضية طبيعية لخلق موسيقى قومية ، كما برزت فكرة أن أناشيد الأمة هى عنوان مدنيتها ، ورمز ما تقدسه من ذكرى ، وتجده في سويدائها من شعور وأمل ، وأن الأمة التى لا موسيقى لها كالفرد الذى لا روح له ، ونتيجة لأن فن الموسيقى والطرب في مصر الحديثة قد عانى الكثير من المصاعب فقد بذلت طوال النصفين الثانى من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين جهود مضنية للتخلص من الطابع الأجنبى بعد أن سيطرت عليه المؤثرات التركية والشامية ، الفرنسية والإنجليزية والهندية ، فإن مهمة سيد درويش وتلاميذه لم تكن سهلة خلال محاولاتهم تحرير الموسيقى العربية تماما من هذه التأثيرات ، وتطوير الغناء العربى ضمن منظومة حوار جوهره تطعيم هذا الفن بالفنون الأخرى ، والوصول به إلى درجة عالية من القدرة على التأثير القوى في الوجدان تكون أساسا لموسيقى مصرية ذات طابع قومى يحمل الموروثات الشعبية بأشكالها المختلفة ، ويفسر المسيرة الحضارية للمصريين وإبداعاتهم وهويتهم الصرفة التى تنبع من مزاج مصرى خالص ، وتعمد إلى إبراز الطابع الوطنى للألحان لإستنهاض الهمم وإثارة الوعى والتنوير بالقضايا الوطنية ، والتعبير عن جوهر الشخصية المصرية بحلوها ومرها • وقد نجح سيد درويش في أن يرسم بموسيقاه طبيعة الحياة المصرية الحقة ، فرسم صورة الغزل في حوارى القاهرة بلحن "على قد الليل ما يطول" ورسم صورة لشيالى محطة مصر بلحن واضح معبر ، كما لحن للحشاشين والسقايين وغيرهم • واستطاع أن ينتج فنا جميلا أثبت به أن مصر كانت تعيش في داخله ، وأنه كان قادرا على توليف مناخ إبداعى يحوى موسيقى وغناء معا ، كما ازدهر المسرح الغنائى على يد الشيخ سلامه حجازى ، ومنيرة المهدية وتم إحداث نقلة في الموسيقى الشرقية تم من خلالها الخروج من العباءة التركية ، وجعلها تتلاءم مع روح العصر ، ولتكون أقرب إلى قلوب الشعب ، وأبعد احتكار الخاصة عنها مما هيأ الأذن العربية لاستقبال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وليلى مراد وأسمهان ونجاة على ، وعبد الحليم حافظ ، وفايزة أحمد وغيرهم، وأدى إلى ظهور الرعيل الأول من الموسيقيين الذى سايروا حركة التجديد مرورا بالقصبجى وأبو العلا محمد ، وعبد الوهاب ، وزكريا أحمد ، والسنباطى ، وأحمد صدقى ومحمود الشريف والموجى والطويل ، ومدحت عاصم ، وداود حسنى وغيرهم • وكل

هؤلاء قاموا بدورهم الرائد في عزف نشيد الألم والأمل في مرحلة من مراحل البناء ، وهيأوا التربة المصرية لذلك فظهرت أغانى ترمز إلى قضية العدالة الاجتماعية ، وجلاء الاحتلال الإنجليزى وغيرها من المسائل الضرورية والملحة لمرحلة العصر • ثم جاءت ثورة ٢٣ يوليو وانحازت للعدالة الاجتماعية وإلى ضرورة القضاء على مجتمع الاستغلال والغوغائية السياسية وهدفت إلى إنشاء مجتمع جديد وفق مشروع حضارى مختلف في أهدافه عن التطبيق الذى كان سائدا في العصر الملكى ، وظلت الأمور كذلك ولكنها لم تسر كما كان متوقعا • ففى نهاية القرن العشرين دخلت الموسيقى الغربية بشكل فاضح وبرز جيل من شباب الفرانكو آراب فاقدا للهوية ، وأصبحت الألحان تدور حول "السامبا" "والووجى بوجى" بعد أن كانت تدور حول الرصد والصبا والحجاز كار[1] كما دخلت العولمة بالتكنولوجيا الغربية راغبة في فرض قيم جديدة إهتزت معها القيم الرفيعة وأصبحت الحاجة ماسة لجمع البذور والثمار المتساقطة ، وظهور جيل جديد يطفو على السطح ، ويقوم بإنقاذ هذا الفن من عثرته ، وإيصال قديمه بحديثه لتكون لمصر شخصيتها المميزة •

وتبعا لذلك تم تقسيم موضوع هذه الدراسة إلى ثمانية فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة حاولنا أن نسهم فيها بجهد متواضع في إبراز الإيجابيات والسلبيات التى طرأت على فن الموسيقى والطرب في مصر خلال عصرها الحديث والتطورات المعاصرة لذلك •

والجدير بالذكر أننا لا ندعى أننا نعرض هذه الدراسة من منطلق ثقافة الموسيقار أو الفنان ، كما لا ندعى أننا نحيط بكل نواحى الموضوع الفنية ، أو أن ما نكتبه هو كتابه باحث في الموسيقى العربية وفنونها فهذا ليس هدفنا إذ لا شك أن الكثير من حروف الهجاء الموسيقية ربما تسقط منا ، وإنما ما نعرضه ما هو إلا محاولة لإثبات أن هذا الفن جزء من تاريخ وتراث مصر ، وأنه يعد بمثابة وثائق للتاريخ الاجتماعي والسياسي لمصر الحديثة والمعاصرة خاصة وأن العديد من العلوم الإنسانية الأخرى ترتبط به • هذا بالإضافة إلى أن الباحث في التاريخ عندما يتعرض للكتابة في موضوع معين فإن عليه أن يتبع خطوات المؤرخين في الكتابة من ناحية التوثيق والعرض والتحليل ، وإبراز الأثر الاجتماعي والثقافي للموضوع ودوره في النواحى الحياتية للمجتمع وكل هذا يعد من

(١) نغمات ومقامات موسيقية •

أساسيات منهج البحث التاريخى • هذا إلى جانب محاولته استرجاع واقع الحدث بظلاله وألوانه وأضوائه وروائحه حتى لو كانت غير محببة للنفس أو باهتة أو كريهه فهو لايُجمّل قبيحًا ، ولا يُقبح جميلا وإنما هدفه هو البحث عن الحقيقة • أما الموسيقى أو المطرب فعندما يتعرض لمثل هذه الدراسات فإن له أفكاره الحياتية التى يتابعها وتحوم حوله ، فيدنو منها أو يبتعد عنها كما أن له انطباعاته الفنية ، ونوتته الموسيقية ، وأدواته ، وتجربته التى يجيد الخوض فيها ، هذا بالإضافة إلى صندوق ذكرياته الشخصية التى ربما يُعبر عنها ، ويحكيها ممزوجه بممارسته العملية للمهنة بظلالها وأضوائها ، وباسترجاع واقع يمكن أن يكون قد عاشه •

ولما كان الكثير من الموسيقيين والمطربين قد أدلوا بدلوهم في مثل هذه الدراسات وامتلأت رفوف المكتبات الموسيقية به فإن سعينا لدراسة هذه الموضوع والخوض فيه ترجع إلى أن أحدا من المؤرخين لم يتطرق إليه من بعيد أو قريب على الرغم مما فيه من ثروة فنية خالدة أضافت إلى مناحى حياة المجتمع المصرى الكثير خاصة وأن الموسيقى والطرب يعدان من ألوان التعبير الإنساني لأى أمة من الأمم ، فهما كالألفاظ والجمل التى تحمل المعانى وتكشف عنها • ومع أن للمؤرخ أدواته كما ذكرت فإننى لا أنكر أننى استفدت كثيرا مما كتبه من سبقونى ، وما وقعت عليه يدى من مؤلفاتهم ليس لمحاكاتهم فيما كتبوه على طول الدوام لأن ذلك يتصادم مع غايتى من هذا الكتاب وإنما لإبراز البعد التاريخي للموضوع وتأصيله وتوثيقه ، فقد استعرضت تطور الموسيقى والطرب في مصر من خلال منظور سياسي واجتماعي منذ بداية تاريخ مصر الحديث إلى الوقت الحالي خاصة وأن الموسيقى في مصر تعد كمعرض تاريخي يرينا أثر الأحداث التى اجتازتها مصر خلال هذه الفترة •

وعلى الله قصد السبيل ،،

د • عبد المنعم الجميعى